

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً

أ. محمد أبو بكر محسن شوبان

ملخص البحث:

لم يكن الشيخ البيهاني عالماً دينياً ومصلحاً اجتماعياً وحسب، بل كان قامة علمية وأدبية سامقة، أثرى الحياة الأدبية اليمينية والإسلامية بروائعته الشعرية فضلاً عن الجانب النثري الذي كانت له بعض الإسهامات فيه. ونظراً لنبوغه في العلم الشرعي واشتهاره به، فلم يعرف عن شعره إلا القلة القليلة مع أنه طرق أغراض الشعر جميعها وكان لشعره أبعاده الوطنية والقومية والاجتماعية والإسلامية التي حفل بها ديوانه، ورباعياته، التي تناول فيها الكثير من الفضائل والأفات شعراً، إضافة إلى الشعر المنظوم، فله كتاب: (أشعة الأنوار) في مجلدين، حوى أكثر من أربعة آلاف بيت تناول فيها جانباً من التاريخ، وله أيضاً (تربية البنين) وهي أرجوزة شعرية من الشعر التعليمي..

إن المطلع على شعر البيهاني يجد شاعراً فذا وهب نفسه لدينه وأمته فانحاز إلى القضايا التي تخص السواد الأعظم من الناس ولم يختف يوماً وراء الأقنعة، فهو الوطني والسياسي والاجتماعي والشاعر الملتزم، ولذا فمن الخطأ أن نقصر شخصية البيهاني على الوعظ والإرشاد، وفي مرتبة دنيا شاعراً وأديباً فهذا أمر حاد عن الصواب وجافى الحقيقة لما له من إسهامات في الأدب والشعر فلقد جمع مع عذوبة اللفظ صدق العبارة وقوة المعنى.

إن نتاج البيهاني الشعري يُعرف بعبقريته الفذة وقريحته المتوقدة فيغرف من بحورها أنى شاء، ويُعرف بنفسه في هذا الجانب، قائلاً:

أيها الكائنات سمعاً فإني شاعر يجعل الزمان يغني
وأنا الشاعر الذي لا يجارى ولشعري رواة أنس وجن

لقد كان البيهاني شاعراً مجيداً وكانت بعض قصائده في الذروة حتى ليصح بكل المقاييس أن تدرج تحت مسمى "غرر الشعر العربي"، إضافة إلى فن النظم الذي يدل على يده الطولى وقدحه المعلى في الشعر التاريخي والتعليمي.. فهو بحق المربي والمؤرخ ويعتبر أحد مؤرخي اليمن، وإذا كان المؤرخون يكتبون

1- ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (90).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان
التاريخ نثراً؛ فإن البيحاني قد كتبه شعراً بتأليفه لكتاب: (أشعة الأنوار في
مرويات الأخبار) الذي يقع في مجلدين عدد أبياتها أربعة آلاف وثلاثمائة بيت
تقريباً، وكلها من بحر "الرجز". كما كتب قصة (صفية المظلومة) و(الأديب
الضائع) من النثر الأدبي.

توطئة:

بقدر ما كان للبيحاني من مكانة وشهرة في التاريخ اليمني الثقافي
والسياسي والإصلاح الاجتماعي، كان نتاجه الفكري مغموراً حتى وقتنا
الحاضر.. فهو عالم وفقه وشاعر نظم القصيدة بأجمل المعاني الشعرية، وله
مساهمات إعلامية منها الإذاعي ومنها الصحفي، كما كان له دور ريادي في
نشر التعليم والثقافة، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فمن المعهد العلمي
والجمعية الإسلامية لتعليم القرآن الكريم، فنادي الإصلاح العربي إلى أشعة
الأنوار في مرويات الأخبار التي رقد بها التاريخ نظاماً شعرياً إلى غير ذلك، كل
ذلك يثبت أن رجال السياسة والفكر والثقافة والإعلام في اليمن لم ينصفوا هذه
الشخصية المبدعة التي اندثر بعض تراثها العلمي والثقافي والتراثي دون أن يُعلم
مصيره حتى الآن وسيظل حلقة مفقودة من سلسلة الثقافة والفكر اليمني.

لقد أبى البيحاني أن يكون شخصية عابرة.. لقد رسم وجوده ليكون منارة
وعلماً من أعلام الفكر والثقافة في اليمن، والبحث عن تراث البيحاني وأمثاله هو
بحث عن الهوية الثقافية.

إن أصدق تعبير ووصف يمكن أن يقترب من تحديد هوية البيحاني هو: أنه
العالم والفقهاء والشاعر والإنسان، والسياسي والإصلاحي الاجتماعي الذي سكن
قلوب معاصريه وأثار عقولهم.. وامتد أثره إلى أجيال لاحقة؛ فكان من حقه أن
يستحوذ على معاني الحب والوفاء والإجلال.. وسنقدم في هذا المبحث ومضات
من حياة هذا الشاعر الإنسان دون الغوص في التفاصيل.

شاعريته:

لم يكن الشيخ البيحاني عالماً دينياً ومصلحاً اجتماعياً وحسب، بل كان قامة
علمية وأدبية سامقة، أثرى الحياة الأدبية اليمنية والإسلامية بروائعته الشعرية
فضلاً عن الجانب النثري الذي كانت له بعض الإسهامات فيه. ونظراً لنبوغه في
العلم الشرعي واشتهاره به، له يعرف عن شعره إلا القلة القليلة، مع أنه طرق

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

أغراض الشعر جميعها، وكان لشعره أبعاده الوطنية والقومية والاجتماعية والإسلامية التي حفل بها ديوانه، فلا نبالغ إذا قلنا: إنه العالم الموسوعي، فلقد جمع مع عذوبة اللفظ صدق العبارة وقوة المعنى.. بل لا نبالغ أيضاً إن قلنا: إنه جمع بين حكم المتنبي وشاعرية البحري وفلسفة المعري ووطنيات حافظ وشوقي، ولهذا فإنه ينطبق عليه قول الشاعر:

وقاد ذهن إذا جالت قريحته يكاد يقضى عليه من تلهبه

مع أن الشعر لم يحظ عند البيهاني إلا بالقليل من وقته، بل إنه ليصح القول: إن الشعر كان على هامش حياته ولو قصد بحوره لأتعب قوافيه. وفوق هذا وذاك فقد قرض العديد من القصائد التي ضمنها ديوانه في مختلف الأغراض، وله أيضاً (الرباعيات) التي تناول فيها كثيراً من الفضائل والآفات شعراً إضافة إلى الشعر المنظوم، فله كتاب: (أشعة الأنوار) ومنظومة (تربية البنين) وهي أرجوزة شعرية من الشعر التعليمي.

إن المطلع على شعر البيهاني يجد شاعراً فذاً وهب نفسه لدينه وأمه فأنحاز إلى قضاياها التي تخص السواد الأعظم من الناس ولم يختف يوماً وراء الأقنعة، وهو الوطني والسياسي والاجتماعي والمصلح والشاعر الملتزم بقضاياها ولذا فمن الخطأ أن نقصر شخصية البيهاني على الوعظ والإرشاد، وفي مرتبة دنيا شاعراً وأديباً فهذا أمر حاد عن الصواب وجافي الحقيقة لما له من إسهامات في هذا الجانب هي أدل من الدليل وفي مضمونها الخبر اليقين، فهو القائل¹:

يقولون هل تهوى ولست بمبصرٍ ومن أذني مرَّ الحبيب إلى قلبي
بنفسي أفديها إذا ما تكلمت وأرهفت سمعي كدت أقتل بالحب
لقد خلقت حورية في طباعها وفي جسمها لكن من اللؤلؤ الرطب
ولو أنها مست مريضاً بكفها لعوي واستغنى المريض عن الطب

إن نتاج البيهاني الشعري يُعرف بعبقريته الفذة وقريحته المتوقدة فيغرف من بحورها أنى شاء، ويُعرف بنفسه في هذا الجانب، قائلاً²:

أيها الكائنات سمعاً فإني شاعر يجعل الزمان يغني

1 رباعيات البيهاني، الشيخ محمد سالم البيهاني، ص 13، 14.

2 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (90).

وأنا الشاعر الذي لا يجارى
وإشعري رواة أنس وجن
يبعث الميت ما أقول وعندي
يحضر الأصمعي للنقل عني
ما ابن هاني وما صريع الغواني
غير ساق ومحتس خمر دني
خمرة لا تدار إلا بكأس
مترع من شراب شاي وين
يخلق المطربون من كل جيل
وكذا العود والرباب لفني
رُب هيفاء لو تغزلت فيها
عذب العاشقين طول التمني

لقد كان البيهاني شاعراً مجيداً وكانت بعض قصائده في الذروة حتى ليصح بكل المقاييس أن تندرج تحت مسمى "غرر الشعر العربي"¹، فهو - إن صح التعبير - مدرسة شعرية تمثل الالتزام في أعلى مراتبه، مدرسة شعرية شامخة وبديعة، إضافة إلى فن النظم الذي يدل على يده الطولى وقدره المعلى في الشعر التاريخي والتعليمي... فهو بحق المرثي والمؤرخ، ويعد أحد مؤرخي اليمن، وإذا كان المؤرخون يكتبون التاريخ نثرًا؛ فإن البيهاني قد كتبه شعراً بتأليفه كتاب: (أشعة الأنوار في مرويات الأخبار) الذي يقع في مجلدين عدد أبياته أربعة آلاف وثلاثمائة بيت تقريباً، وكلها من بحر الرجز يقول عنه محمد بهجت البيطار في تقديمه لهذا الكتاب:² "وهو أوسع ما رأيت شعراً في سيرة النبي وسيرة الخلفاء الراشدين حتى وصلت الخلافة إلى بني أمية وكذلك دولة بني العباس والدول المعاصرة في ذلك الوقت وغيرهم كدولة بني مهدي بن حمير ودولة الصليحيين اليمانية ودولة بني أيوب في اليمن وشيئاً من تاريخ حضرموت .

الموضوعات التقليدية في شعر البيهاني:

للبيهاني قصائد متعددة في المدح والرثاء والفخر والوصف والغزل والهجاء، وغير ذلك من الأغراض ذات الطابع الوجداني وهي في مجموعها تكاد تكون قليلة قياساً إلى شعره الإصلاحية. وهذه الأغراض موروثية برزت في شعرنا العربي القديم، وظل العرب يتغنون بها بين إكثار في بعضها وإقلال في البعض الآخر،

1 ينظر: من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة- الأمانة العامة، ص194.
2 مقدمة أشعة الأنوار في مرويات الأخبار، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، ط1، 1986م، 9/1، 10.

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان
تبعاً لظهور قيم واختفاء أخرى في مراحل مفصلية في تاريخنا العربي. والبيهاني
أحد شعراء المدرسة التقليدية في العصر الحديث تراوحت موضوعات شعره بين
هذه الأغراض قلة وكثرة، كما سنرى ذلك في الأغراض التي طرقها.

المديح:

لقد مدح البيهاني شخصيات اجتماعية وعلمية وسياسية كانت لها
إسهامات وطنية وقومية وإسلامية وإنسانية بما تستحقه وفقاً وقناعته، وإن كان
- أحياناً - تراجع عن بعض المعاني في ممدوحيه كما يظهر في ديوانه عند
التعليق على قصائده.

ومما قاله قصيدته التي مدح بها الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود -
يرحمه الله- التي منها:¹

ألا يا أيها الملك المفدى	بما في الأرض من شيء تفتدى
بما في الأرض من نفس ومال	ومصلحة وغايات ومبدأ
وأنت إمامنا وإليك نشكو	وبعد الله نحسبك المرء

هكذا مضى البيهاني في عزة وإباء يتوج قصائد مدحه بمطالبه الإصلاحية
التي كانت هدفه المنشود ومطلبه الرئيس من ممدوحيه؛ إن مثل هذا المديح يعد
وثائق تاريخية تدل على المحاولات الجادة لإقناع الحكام بالحكمة وبأرق الوسائل،
كي يسمحوا بالتطور الإصلاحي المنشود، وقد نجحت هذه الدعوة حيناً وأخفقت
أحياناً أخرى، ففي قصيدته التي مدح بها الإمام² وضمنها الرجاء بإطلاق
المسجونين في حادثة الإمام يحيى، استغل البيهاني الحدث ليلفت انتباه الإمام
إلى الإصلاحات التي يؤملها الناس على يد الإمام أحمد، وفي قصيدة البيهاني
التي أرسلها من مستشفى (تعز) الذي كان يرقد البيهاني فيه؛ وحين اشتدت
الأزمة بين الإمام وإخوانه في ذي الحجة 1374 هـ قال البيهاني مادحاً الإمام³:

بحسبك يا أمير المؤمنين مديحاً أنك ابن الأكرمين

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (26).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (84).

3 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (83).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

ويوم من حياتك لا تسوى به الدنيا وآلاف السنينا
ووقت الجد أضيق من فراغ يردد فيه مدح المادحيننا
فهب لي من فراغك بعض وقت أقدم فيه نصح الناصحيننا

إن البيهاني لم يمدح كما نحسبه وكما يظهر لنا من شعره إلا لغرض شريف أو في مهمة من مهمات الزمان فلم، يقصر مدحه على لون أو وطن أو مذهب أو جنسية أو دين، بل مدح المسلم وغير المسلم بما يستحق وبما لا يخالف حدود الشريعة ولوازمها.

الرثاء:

البيهاني كغيره فجع بموت من يعزون عليه، فترجم أحاسيسه ومشاعره إلى ألفاظ تعبر عن مكنون النفس. فمن مراثيه ما قاله في رثاء صديقه عبد المجيد الأصنج¹:

عبد المجيد عليك العلم والأدب يبكي وتبكي عيون الشعر والخطب
والدين واللغة الفصحى وما اشتملت عليه في كل علم هذه الكتب
وفي الجنوب عموماً ثم في عدن على الخصوص كبار القوم تنتحب
يا خير من صور المعنى وأخرجه في خير لفظ كما يستخرج الذهب
لمن تركت القوافي وهي خاوية على عروش المعاني ما لهن أب

وعندما نقرأ القصيدة نلمس صدق المشاعر التي ينقلها الشاعر مقتفياً الشعر القديم في طريق التصوير (تبكي عيون الشعر والخطب)، (ودمع العين ينسكب)، (ولو طلبت مثيلاً عزك الطلب).

وعند النظر إلى قصائد الرثاء عند البيهاني المتأثر بمدرسة الإحياء والتقليد في اليمن، نرى جانباً مهماً اخترق به الشاعر التقاليد الموروثة في هذا الغرض ألا وهو رثاؤه المدن والمناطق المنكوبة بالاحتلال ومن ذلك ما قاله في رثاء فلسطين والمسجد الأقصى خاصة، يقول²:

إذا شئت من دمعي وإن شئت من دمي فمحبرة عيني ومحبرة فمي

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (8).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (77).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

وفي صفحات الدهر سجل مأسياً ليقرأها الآتي عن المتقدم
وسجل من التاريخ ما فيه عبرة يفسرها الأستاذ للمتعلم

فالبيحاني صور في هذه القصيدة وضعاً مأسوياً لأمة تتساقط أمام ضربات عدوها. وفي مرثية أخرى للبيحاني رثى بها الأطفال الذين نسفت سيارتهم في كلية بلقيس بمنطقة الشيخ عثمان بعدن نلحظ عمق المأساة وبشاعة الصورة التي نقلها البيحاني لتعبر عن هول الفاجعة وقبح الجاني مهما كانت دوافع الجريمة:¹

بالله ما ذنب أطفال مساكين ما ذنبهم يا رجال العلم والدين
هل يقتل الطفل مهما كان والده ورُب طفل ملاك من شياطين
الشرع والعقل والقانون يمنع من هذا وإن شئت فاسأل أي قانون

هكذا كان غرض الرثاء عند البيحاني المنتمي إلى مدرسة الإحياء والتقليد، مدرسة الزبيرى والبردوني والحضرائي وغيرهم ممن حمل لواء هذه المدرسة في اليمن، فكان شعرهم يحمل جانباً وطنياً إلى جانب الرثاء الشخصي، فعبّر الشعراء عن مآسي البلاد ونكباتها، فلم يعد الشاعر ييكي الميت ويعدد مناقبه فحسب؛ كما كان في الرثاء التقليدي وإنما أسقط المأساة العامة على المأساة الخاصة، وإذا بهذه الأخيرة تتحول إلى مأساة عامة، فيها كل ما في المأساة العامة من شمول وعمق فجيعة.²

الغزل:

لقد جاء الغزل مستقلاً بنفسه عن الأغراض الأخرى في قصائد ومقطوعات دواوين الشعراء المعاصرين؛ وفي ديوان البيحاني جاءت قصائد الغزل مستقلة. ومن قصائد البيحاني الغزلية قصيدته التي عنوانها "تحلماً لا حلماً ودعابة لا تأثماً" والتي يقول منها:³

كنت مستغرقاً بنوم عميقٍ وإذا بي أحسُّ شيئاً عجيباً
قد حباني بقبلة نبهتني فوجدت الحبيب زار الحبيبا

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (88).

2 ينظر: الأبعاد الموضوعية والفنية، د.المقالح، دار العودة، طر، بيروت، 1978م، ص107.

3 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (11).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

هل هو الشمس في نهار شتاءٍ أم هو الغصن ما يزال رطيباً
أم هو البدر في ثياب حريير وعليه سحابة المسك طيباً

وقد تأثر الغزل الإحيائي اليمني في موقفه الفكري بمؤثرات تراثية عديدة منها مؤثرات اجتماعية تقوم على التقاليد العربية والفكر الإسلامي الذي يعتبر أهم المؤثرات في فكر المجتمع اليمني الذي ظهر فيه هذا الغزل التقليدي، الذي كان معظم ناظميه من رجال الدين، أو من كان أساس ثقافتهم سلفياً، والإسلام لا ينكر الحب، ولا يدعو إلى الرهينة عزوفاً عن النساء، وإنما أباح الحب في حدود حلال الشريعة الإسلامية وفي حدود التقوى¹ نجد هذا الموقف في قصيدة البيهاني التي تغزل فيها بفتاة (عائلة يمنية)²:

يا أيها القمر المطل السارياً مالي أراك وقد فتنت الرائيا
هلا ظهرت فكنت بدرًا مشرقاً أو كنت في جلبابها متوارياً
رُحماك بالعشاق لا تقتلهمو وهمو كثيرٌ في جوانب آسيا
ولمن يريد الحرب قوس واحد فعلام قوسين اتخذت ورامياً
نظراتها مثل السهام وركبت في الحاجبين على العيون سواجياً

هكذا انطلق البيهاني في قصائده الغزلية التي أفرد لها بعض قصائد ديوانه، بالإضافة إلى الأبيات الغزلية التي نثرها في أحشاء قصائد ديوانه، أو في رباعياته التي تدل على أن وراءها شاعراً مجيداً.

والجدير ذكره أن للبيهاني قصائد أخرى فيها حديث عن المرأة بشيء من ذكر مساوئها وأحياناً محاسنها بعيداً عن التغزل بها، وإنما بغية إصلاح وضع المرأة وتقوية مركزها في المجتمع وهو ما يجعل هذه القصائد خارج موضوع الغزل.

الزهد والحكمة:

إذا عدنا إلى السجل الحياتي للبيهاني لوجدنا عالماً واعظاً اتخذ من الزهد شعاراً لحياته فطرقه شعراً ونثراً وتخلقه سلوكاً، لقد أفرد البيهاني لهذا

1 ينظر: الغزل التقليدي في اليمن، د. عبد الرحمن العمراني، ص 53.

2 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (95).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

الغرض قصائد في ديوانه، كما احتوت على شيء من ذلك رباعياته، فهو
القائل:¹

سلام على أهل القبور وإنما لعمماً قريب لآحقون بكم موتا
ومهما يُطل عمر الفتى في حياته تقيّاً وجباراً عصياً فلا فوتا
ولا ندري ما أحوالكم عند موتكم ولا ندري موصولاً ولا ندرى مثبوتا
وما بيننا إلا الجدار فكيف لا نرى منكم شيئاً ولا نسمع الصوتا

والحكمة في شعر البيهاني قد تردت في قصائد عامة، على الرغم من أننا
نشعر بالحرَج إذا بعثنا قصائد الشاعر وقرأناها مجزأة و مقطعة للوقوف على
أرائه في الحياة والناس والكون ذلك "لأن البيت الذي تقرأه بعيداً عن القصيدة
هو جزء مقتطع جردناه من أصله ومن جو القصيدة العام؛ وقد ضاع الشعر وتبدد
الإبداع في خضم هائل من التجزئة الدائمة وقد عرف عن بعض القدماء أنهم لم
يرتضوا أن يقتطعوا أو يسقطوا أي بيت من قصائدهم"².

وعلى الرغم من هذا فإن الحكمة التي نقصدها عند البيهاني أو غيره لا
تكمن في أبيات مفردة أو أنصاف أبيات نعجب بها أو نحفظها وإنما تكمن في
موقف الشاعر بوصفه إنساناً خلاقاً، إنساناً له مواقفه من الحياة والكون، وما
يدور من حركة وصراع تولد الكثير من التجارب والمواقف الحياتية، وفي شعر
البيهاني خلاصة تجاربه الحياتية ورؤيته للحياة بما تكتنفه من موجودات بعيدا
عن الهوى وغضلات النفس في حياة خَبَر من أخص خصوصيتها الانقضاء
والزوال، سريعة التحول من الفرح والسرور إلى الترح والحبور، ويعبر البيهاني
عن عدة مواقف صنعتها لديه التجارب فأخرجتها حكماً محكمة الإبداع في أبيات
احتوتها بعض قصائده، منها:³

وعند صباح القوم قد يحمد السرى وعند طلوع الشمس يندم نوم
ومن عاش بين الناس يندب حظه فليس بمغنيه البكا والتندم

ومنها:⁴

1 ينظر: رباعيات البيهاني، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، ص 25.

2 ينظر: إبراهيم الحضرائي (الإنسان والشاعر)، د.هادي نهر ، ص 87.

3 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (72).

4 ينظر: ديوان البيهاني ، القصيدة رقم (15).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

وطعم التمر في الأفواه حلو
ومنها: ¹

وتخبط في الضلالة خبط عشوا
ومنها: ²

إذا طاب أصل الشيء طابت فروعه
وكما هو معلوم بصدق التجارب
وغيرها كثير من الحكم المتناثرة في ثنايا قصائده.

الوصف:

وقد أجاد البيهاني في هذا الغرض - وإن كان مقلداً فيه - فنظر إلى الكون وما فيه من مخلوقات ونباتات أبدعتها يد البارئ الحكيم، وتعد آية من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته وجميل صنعه ومنتهاى كماله . هذه الموجودات الكونية استتارت وجدان الشاعر وحركت عواطفه وأحاسيسه وأيقظت مشاعره فأخذ يصف الطبيعة ويهيم بما فيها من نبات وأمطار وبرق ورعد وحيوان، وما إلى ذلك، وهذا دليل على الصلة الوجدانية التي نشأت بين الشاعر والطبيعة التي وصفها حتى ليكاد الوصف يسحر الأبواب ويأخذ بمجامع القلوب والوجدان، وكيف لا يكون ذلك وهو الذي يملك المادة اللغوية الغزيرة والحس المرهف والموهبة المبدعة، وليس أدل على ذلك من مصاحبة البيهاني وهو يصف لنا النسيم وصفاً خلاباً يتدفق معه قريض الشعر الجميل: ³

نسيم الصبا هل أنت من أثر السحر أم السحر لا يسري إذا أنت لم تسر
تهب علينا والمشاعر نوم فتبعث منا نائم الشعر والنثر
وتهتز أغصان ويعبق طيبها وتمتلئ الأجواء من طيب الزهر
ونسيم أطيّاراً تغني كأنها تترجم للأغصان مستعجم السر
فيرقص غصن البان والروض مسرح ونطرب من صوت الحمامة والقمري

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (1).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (9).

3 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (40).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان

وفي موضوع الوصف قد لا تقف على جديد، حيث أن هذه الصور والمعاني قديمة، وتكررت كثيراً في قصائد الأقدمين، ولا سيما ما كان في وصف الطبيعة، إلا أن البيهاني قد وصفها وصاغ معانيها بأسلوب عصري متين يدل على صفاء طبعه ورفعة ذوقه واندماجه في الطبيعة.

الهجاء:

وإذا تتبعنا شعر الهجاء عند البيهاني نجده يأخذ البعد العام أكثر منه إلى الخاص، فاهتم بالبعد الوطني والقومي والإسلامي في أهاجيه التي وجدت في قصائده، ولم يكن هجاؤه الطعن في عرض أحد أو الثلب في حق أحد بعينه، ولكن كان هجاؤه عاماً، فحين تتعرض المقدسات الإسلامية للإساءة أو يتصدر الدين من لا خلاق له، يثور البيهاني ومعه مشاعره ووجدانه، فعندما تجرأ الأمير أحمد بن فضل العبدلي (القمندان) في قصيدة مجونية له على الإساءة إلى الإمامين الجليلين: البخاري ومسلم وغيرهم، بقوله:¹

لا تعتبر قط ولا تنتم لا بالبخاري ولا مسلم

العسقلاني لا ولا الهيثمي فإن عند العقل فصل الخطاب

فأنكر العلماء على القمندان ذلك فرد عليهم برسالة أسماها "فصل الخطاب بإباحة العود والرياب" فرد عليه البيهاني برسالة أسماها "شفاء المصاب من لسعات العود والرياب"² وهجاه البيهاني بقصيدة هو وكل من يدعي العلم ويستدل على إباحة اللهو والطرب بلا قيد ولا شرط، قائلاً:³

يا أيها الجاهل والمدعي لا تحسبن العلم فيما تقول

والله لم تبصرو ولم تسمع بالمنطق الحق ولا بالأصول

على أنه في هجائه لم يكن يصدر عن نفس تريد لهم المهانة بذكر المثالب الفاضحة وتعداد المساوئ الجارحة، إن خبرة الشاعر الصادقة بنفوس معاصريه وخاصة معاصريه أجبرته أن يقف أمامهم موقف المجابهة والعنيد. والهجاء المغرض دون شك أمر مقبوت لا ينحدر إليه فنان كريم ولكننا هنا نفحص وضع البيهاني في بيئة تحرشت به حين أعلن مواقفه الصريحة وخطه الواضح،

1 زوبعة في قارورة، محمد بن سالم البيهاني، ص 13.

2 نفسه، ص 13.

3 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (68).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويان

فغمزته وحرمته، ووضعته أمام موقفين لا ثالث لهما: فإما أن ينزوي على نفسه ويجرع همومه ويرضى بالواقع كما هو مما قنع به كثير من أبناء وطنه، وهذا تأباه طبيعة رجل شرس فطره الله على الاعتزاز بنفسه ودينه، وصقلته تجاربه بتحدي الباطل، وتخلق على قيم الإسلام ومثله التي ترفض الضيم وتتحدي العقاب، فأعلن الثورة على هؤلاء المترفعين فحفظ مكانه في الحياة والتاريخ؛ لقد رأى البيهاني بعض الناس قد خالف نهج الإسلام قلباً وقالياً وأخذ في مهاجمة المصلحين، فأخذ البيهاني يهجوهم ولكن دون أن يقصد شخصاً معيناً ولكن يهجو من تنطبق عليهم هذه الصفات، قائلًا:¹

تطاولت الأقرام والنمل أريشا وأفرط ملعون علينا وأفحشا
وقال الذي لا يستحي ما بدا له وسجل أفاض السباب كما يشاء
تنكر للإسلام قلباً وقالياً وفي رأسه الشيطان باض وعششا

هكذا كان هجاء البيهاني الملتزم دائماً بقضاياها التي هي قضايا المجتمع من حوله، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولم يهج انتقاماً ولا تقصداً لأحد أو تتبع لزلاته، فعاش حياته شاعراً يذم الصفات والسلوكيات التي تتعارض ومبادئ الإسلام، ويأبأها الذوق السليم وتمجها الأذان التي تتعشق الجمال.

الحنين:

إن البعد عن الأهل والديار ومواقع اللهو والصبا ظاهرة كان لها وجودها الشائع بين اليمنيين قديماً وحديثاً عبر عنها الأدب اليمني شعراً ونثراً، هذه الظاهرة ولدت الإحساس بالغربة وشعور الإنسان بالعزلة، وأشد أنواع الغربة هي أن يكون الإنسان غريباً في وطنه وبين أهله، غير أن التناقضات والتأمر على حياة المصلحين مما يزيد في مرارة الغربة ويعمق مأساتها ويزيد من حرارة الإحساس بالقهر، ولاسيما إذا صاحب ذلك التأمر تعمية عن الواقع وطمس للحقائق ونكران للذات وفقدانها.

و البيهاني هنا صادق الشعور قوي الإحساس صريح مع نفسه، فلا ينتابه الشك بأن هناك مؤامرة على كل إنجاز وطني أو إسلامي، وأن هناك مؤامرة تحاك على حياته وأمثاله من رجالات الإصلاح؛ وبعد أن تأكد من شكوكه

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (46).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أويكر محسن شويان

نازعته نفسه في الخروج من عدن التي أحبها وأحب أهلها وأحب هواها ومعالمها، فاعتبرها تاريخاً ووطناً، وقضية ودين، لقد ضاق به المقام في مدينته (عدن) التي يراها كالدمية يتلاعب بها أصحاب الأهواء الرخيصة والمطامح الشيطانية والحال فيها لا يزداد إلا سوءاً والأوضاع بها تتصاعد تعقيداً وتنحدر تدهوراً.

وبعد أن اضطره النظام السياسي آنذاك للخروج من عدن التي رأى أن البقاء فيها يشكل خطراً على حياته رغم حبه لها فانطبتت ذكراها في تفكيره فلم تبرحه، كيف لا وهي التي بادلته الحب بالحب والوفاء بالوفاء واحتضنت أعظم منجزات حياته وهو المعهد العلمي وطلابه النجباء وأصدقائه الأعزاء، وفيه محبوبه وثمرة أسفاره وترحاله من قطر إلى قطر ليراه شامخاً وصرحاً من صروح العلم في وطنه المنكوب اليمن، نعم خرج إلى (تعز) التي استقبل فيها بحفاوة وتكريم، ومع ذلك أخذت تباريح الحب تنازعه نفسه وأخذ الحنين إلى عدن يتملك عليه شعوره وتفكيره فاستثار وجدانه المرهف وإحساسه الرقيق، فأخذت مشاعره تتدفق بغزارة حاملة صاحبها فوق أمواج الغربة التي توحى له بالوحدة النفسية والعزلة المجتمعية، فمن مدينة تعز يبعث بقصيدة أقل ما يقال عنها إنها رائعة تهز الوجدان وتحرك الشوق، فلا يجد المخاطب أمامه إلا المشاركة الوجدانية والشعورية التي انتابت الشاعر حينها، وهي القصيدة التي قالها في الشوق إلى عدن والبكاء على ما كان فيها، ومنها:¹

أحن إليك يا بلد المعالي وما لي لا أحن وألف مالي
أحن إليك والأنفاس حرى ونار الحب تطفى بالوصال
وأسأل عنك زواري جميعاً وما يشفي الجواب من السؤال

ولم تكن عدن وحدها هي التي حن إليها البيهاني وإن كانت الأكثر استحواذاً على حنينه، فإن هناك موطناً آخر كان له معه أجمل الذكريات بل كان له فضل - بعد الله - في مسيرته العلمية ألا وهي مدينته (تريم) الموصوفة بالغنى، حن البيهاني إلى مراتعها وإلى مشايخه الذين أحبهم وأحبوه وقد صان لهم الجميل والعرفان، وعلى رأسهم شيخه وأستاذه السيد / عبدالله بن عمر الشاطري:²

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (69).

2 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (81).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويبان

رعى الله أيام الوصال وإذ كنا
مع السادة الأشراف في البلد الغنأ
تريم التي طاب الحديث بذكرها
فيا حبذا الغنأ ويا حبذا المغنى
رياض بها تجنى الثمار شهية
وفيها تمتعنا بأطيب ما يجنى

و البيحاني هنا يعبر عن ظاهرة واضحة المعالم فهو شاعر، والشعراء هم أكثر الناس إحساساً بالغربة وأشدهم تأثراً بها، ومن ثم كانوا أقدر الناس على التعبير عن مرارة المعاناة والحرمان والشوق والحنين إلى أيام خلت ومرابع بعدت ونأت، ولم يكتفِ البيحاني الشاعر بالحنين إلى الوطن وإلى الماضي، بل اتخذ من الحنين موقفاً إيجابياً يفتح من خلاله أعين الناس على الخلاص من هذه المأساة وأسبابها، فأخذت قصائد الشوق إلى الأهل والديار حيزاً من شعره ذرف من خلالها الدموع وشكا الغربة:

بالله يا جسمي المصنئ ويا شوق نفسي
إلى لقاء الحبيب
ويا بكائي لبعث الدار أين التأسى
وأين صبر الأديب
يا وحشة البعد زولي عن سروري وأنسى
حتى يعود الغريب

هكذا سار البيحاني في شعره ملتزماً بقضاياه الوطنية والقومية والإسلامية شاعراً مجيداً، وكانت بعض قصائده في الذروة حتى ليصح بكل المقاييس أن تندرج تحت مسمى (غرر الشعر العربي) ولو كان البيحاني شخصاً من غير أهل اليمن، لكان له شأن عظيم ولعدوه من أبرز الشعراء العرب في القرن العشرين² وإن كان البعض يرى - خطأ - أن مهارة البيحاني ومعارفه تقتصر على الوعظ والإرشاد كعالم دين، لكنه فاشل كشاعر، والحقيقة أنه كان شاعر ذا عبقرية فذة وقريحة متوقدة يغرف بها من بحور الشعر أئى شاء، ولكنه لم يعط الشعر إلا القليل من وقته ولو قصد بحوره لأتعب قوافيه، ولكنه كرجل إصلاحي من الطراز الأول تراحمت عند باب المهام التي تتطلبها المرحلة من رجل مثله، فقد جعل قريض الشعر على هامش وقته ومع ذلك قرص العديد من القصائد التي ضمن أكثرها ديوانه الذي بين أيدينا - تحقيقاً - .

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (13).

2 من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة، الأمانة العامة، ص194.

أبعاد التجديد في الموضوعات الشعرية:

لقد خاض البيحاني تجارب عديدة في حياته ناصحاً وفقياً وتوسل بالأدب في رسالته الإصلاحية، فهو سلاح الشاعر يستخدمه في توعية شعبه وحثهم على التقدم واستخلاص حقوقهم السياسية والاجتماعية وتأكيد القيم الأخلاقية وإبراز الثوابت القومية والوطنية والدفاع عنها. هكذا كانت وظيفة الشعر في هذه المرحلة، كما سنرى ذلك فيما ذهب إليه شعر البيحاني من أبعاد.

البعد الوطني:

ولم يكن البيحاني في أية لحظة بمنأى عن قضايا وطنه وأمته وقومه، فأخذ يدعو إلى الحياة المتطورة التي يعيش في أكتافها الإنسان عزيزاً مكرماً محترماً في رأيه، لا يعيش بطشاً ولا خوفاً ولا إرهاباً، يتمتع بكامل الحرية، شريطة أن تكون هذه الحرية وذلك التقدم في إطار الروح الإسلامية الصحيحة، فلا يهوى الحياة مدنسة ولا يرضاهم للغير ويأبى حكم الطغاة وتحكمهم على المغلوبين، لسان حاله يقول ما قاله صديقه الزبيري شاعر اليمن:¹

ونأبى الحياة إذا دنست بعسف الطغاة وإرهابها
فينشد الحياة الحرة والكريمة، قائلاً:²

وقومي لا أريد لهم حياة وهم مثل العبيد أو الولايد
ونفسي لا أريد لها بقاء ويحكم في تصرفها المضاد
ولا أهوى البلاد ولا هواها إذا اتكأ العدو على الوسائد

لقد تناول البيحاني قضايا الوطن اليمني شمالاً وجنوباً، رافعاً رايات الحرب على الأوضاع الفاسدة، داعياً إلى الإصلاح والنهوض من مهاوي الجهل والفقر والمرض التي رأى وطنه ومواطنيه يُغمسون في مياهها الأسنة، وكان يدرك أن أي تغيير أو إصلاح أو نهضة في الشمال حتماً ستشكل اللبنات الأساسية لقاعدة تحرير الجنوب من الاستعمار؛ فيمم ناحية الإمام ناصحاً ومستعظفاً إياه يدعو

1 ديوان الزبيري، ص 292.

2 ينظر: ديوان البيحاني، القصيدة رقم (76).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويان
إلى إصلاح التعليم ومحاربة الجهل والفقر الذي تغص به مدن اليمن وقراه،
قائلاً:¹

يا مليك البلاد شعبك يرجو منك ما يرتجى من العظماء
حارب الجهل وانشر العلم حتى ترفع العرش حكمة العلماء
وإلى الخارج البعثت تبعاً من شباب عليه نور الذكاء

لقد كان البيهاني شجاعاً في نصحه ببرز عيوب مجتمعه وسلبياته، التي يرى ضلوع السلطة السياسية الحاكمة فيها، وهي سبب رئيس من أسبابها، فيدعو للإمام - بوصفه رأس هذه السلطة- إلى الإصلاح والتبصر في أحوال الناس، ليس في الشمال وحسب، ولكن في الجنوب الذي ينتظر الخلاص من واقع الاحتلال البريطاني؛ الذي يمارس سياسة الخداع وينسج على منوالها الأوهام كتشكيل الاتحاد الفيدرالي، الذي ليس إلا ذرا للرماد على العيون، فيوجه النصح للإمام كي لا تنطلي عليه هذه الألاعيب والحيل، قائلاً:²

وما هو الاتحاد الفيدرالي وأنت لهم بعون الله صامد
أليست حيلة قد دبروها ورأيهم مع التدبير فاسد
وكيف يخلص الجزء اليمني وجيش الإنجليز عليه قاعد

لقد تناول البيهاني الشأن السياسي في اليمن من عدة محاور، هي:

- 1- الاستعمار البريطاني والدعوة إلى مقاومته بكل الوسائل المتاحة.
- 2- الصراع الداخلي، الذي كانت عدن مسرحاً له.
- 3- النصح والتوجيه للإصلاح من خلال قصائده للأئمة ودعوتهم للمساهمة في تحرير الجنوب.

وكان - رحمه الله- صريحاً في مهاجمة الاستعمار وفضح أساليبه وكشف دسائسه المخزية، ويشير في شعره إلى اتفاق الشرق والغرب على القضاء على العرب والمسلمين، فيقول:

ويتفق الشيطان أن يقضيا على عدوهما في الشرق أو يظهر الخبر
وقد فرضوا فرضاً علينا محتماً نقوم به قهراً وذاك هو الصبر

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (2).

2 ينظر: ديوان البيهاني القصيدة رقم (25).

وإن نحن لم نصبر على الضيم سجننا وبين السيف والنطع والجزر

وفي قصيدة أخرى يتساءل الشاعر متى نسترد مجدنا ونعيش أحراراً ويعطى كل قطر استقلاله؟ أما أن لنا أن نتحد ونرفع عن أنفسنا الضيم ونكسر قيود المهانة والاستعباد، ونطرد المغتصب من أرضنا، إذا أردنا العزة والكرامة. نجد هذه المعاني وغيرها في قصيدة "إنما العرب أمة واحدة" التي منها:¹

متى يا أيها العرب الأجيال نشاهد مجد أمتنا تجلى

متى سنعيش أحراراً أعزاً ويصبح كل قطر مستقلاً

يدبر أمرنا في كل أرض بنوها المخلصون وليس إلا

وما للإنجليز بها محل وبعده اليوم لن يجد المحل

هكذا سار البيحاني في شعره حاملاً معاني الألم والأمل في وطنه متطلعاً إلى يوم الخلاص من المستعمر داعياً اليمنيين إلى وحدة الكلمة ورض الصفوف:²

يا قوم إن الله يأمركم بتسوية الصفوف وليس في أبدانها

فامضوا إلى العلياء متحدين من شام إلى يمن إلى تطوانها

وتذكروا ما كان في تاريخكم في أرض أندلس وفي أسبانيا

كل هذه الشواهد تكشف أن البيحاني كان يرى أن أفضل الوسائل التي تؤدي إلى استرداد الحق وتحرير الأرض من يد المستعمر هي القوة والاتحاد فاتجه بشعره الوطني نحو الإصلاح من خلال تربية الجيل وتنشئته على القيم والمبادئ الأصيلة.

إن الأحداث الداخلية التي رافقت مسيرة الثورة الوطنية ضد الاحتلال هي أحد المحاور التي تناولها البيحاني في شعره من منطلق وطني، فكانت له مواقف شجاعة في إخماد نيران الحرب الأهلية في الجنوب عام 1968م³ وهذا ليس غريباً عن البيحاني المحب لوطنه ودينه وأمته فظل شعاره "تعالوا إلى كلمة سواء".

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (62).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (84).

3 أمدني بهذه المعلومة مشكوراً د. محمد علي يحيى أثناء جلوسي معه بمكتبة بكلية التربية عدن، الموافق 2005/11/15م.

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويان

لقد وجه معارضو البيحاني كيلاً من التهم إليه لعلاقته بأطراف متناقضة ظاهراً وباطناً، كعلاقته بأل حميد الدين¹ وكذلك لأسلوبه الخطابي اللين الذي اتبعه مع كل الأطراف الداخلية حتى اتهمه البعض بالعمالة والموالاة على حساب قضايا ومصالح الوطن، فيدحض هذه التهم بقوله:²

إلى باذيب أرسلها دموعاً ومن تلك الدموع إلى كمال
وإن أفنيت من عيني دمعي فإن دمي سيكتب لي نضالي
وحاشا أن تضيع جهود مثلي وقد أفنيت عمري في النزال

هنا سجل البيحاني دوره الكفاحي صابراً محتسباً حتى اشتدت الأوضاع صراعاً وأخذت السياسة تتعري من القيم والأخلاقيات ويفترس أبناء البلد الواحد بعضهم بعضاً، هنا أدرك البيحاني حجم المأساة، فقال معاتباً:³

لقد ساءني الوضع في البلد ومالي على الصبر من جلد
ولا قوة يستطيل بها لساني ولا تستطيل يدي

هكذا ظل شعر البيحاني الوطني يتنامى ويتفاعل مع الأحداث السياسية موجهاً ومصالحاً ومحذراً من الاستبداد، قائلاً:⁴

إذا ما استبد الحاكمون بأمة ففيها ودون الله تعبد أصنام
وما تهلك الأوطان إلا بأهلها إذا رقدوا فيها وتسلم إن قاموا

إن شعر البيحاني قد ساير الأحداث المهمة في حياة الشعب اليمني ورصدها بأمانة وعمق، وبيّن سلبيات وإيجابيات كل منها في حياة المواطن، فدعا إلى الإيجابيات وحذر من السلبيات، وهناك مفاصل مهمة في شعر البيحاني الوطني شكلت محطات مهمة في حياته توقف عندها، تملأها، أحب بعضها فهام بها، وأبغض الأخرى فنفر عنها، من تلك المحطات مدينة عدن.

إذا ما قلت: إن عدن و البيحاني صنوان، فقد لا أكون مخطئاً، فهذه المدينة التي شد البيحاني الرحال إليها في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، ومكث بها، وتأثر بها ولها، وعاش أفراحها وتألّم لأتراحها واستنطق معاناتها بوجوده

1 من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة-الأمانة العامة، ص189.

2 ينظر: ديوان البيحاني، القصيدة رقم (69).

3 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (29).

4 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (71).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

قبل لسانه؛ فمن جهل مضزع إلى فقر مدقع ومرض مضجع، ويا لها من أدواء خطيرة تنخر في جسم المجتمع فتنهك قواه! كل ذلك كان له أثره الذي جعل البيحاني يخصص لهذه المدينة مساحة واسعة في شعره ونثره¹ فانبرى لمحاربة ذلك في شعره وفي دروسه وخطبه ومحاضراته وندواته وأحاديثه الإذاعية فكان أحد رجالات الإصلاح البارزين اتصف بالفطنة والذكاء، يوازن بين المصلحة المرجوة وبين المفسدة المتوقعة².

تأصل حب عدن في قلب البيحاني ووجدانه فأعمل من أجلها فكره وعقله وتدقق شعوره شعراً يفيض بالحب والوفاء لمدينته عدن التي اتخذها ملاذاً لمشاعره، يبثها شكواه وآلامه وآماله لتعانق ومعاناتها. ومن يقرأ شعر البيحاني ويطلع على تراثه الفكري سيجد أن عدن هي المركز وهي نقطة الوصول والانطلاق معاً، فإليها وفد ومنها انطلق إلى مشاريعه الإصلاحية على المستوى المحلي والمستوى العربي والإسلامي.

في هذه المحطة لسنا بصدد رصد تاريخي لتحركات البيحاني من وإلى هذه المدينة، وإنما نحاول إعطاء صورة ولو مصغرة وفكرة وإن كانت موجزة عن كيفية تناول موضوع عدن في شعر البيحاني، وما جاش بصدرة وخالج فكره عنها، فقد جعل حب عدن إحدى عرى الإيمان مضمناً عليها هالة من التقديس، فيقول³:

وأنا لو طرت من شوقي إلى ذات حسن ودلال وحَقَر
عدن ما لامني في حبها غير إنسان توَلَّى وكفر
وبها أهلي وفيها موطني وأنا المنسوب عنها المنتظر

وإذا تابعنا تقليب أوراق الديوان نجد استمراراً للنفس الشعري وتدققاً للمشاعر حتى أنه رسم حدود مدينته التي قال: إن شفار العدو تحاول بترها من جسم أمها "اليمن" وتريد تغريبها ومحو تاريخها من السجل العربي والإسلامي بما تكتنزه دفتاه من تاريخ مجيد لهذه الأمة التي استعصت على الغزاة وفتحت

1 للبيحاني كتاب "الفتوحات الربانية"، يعالج فيه كثيراً من الأدواء الاجتماعية في عدن، وكذلك أستاذ المرأة وغيرهما من الكتب التي كان لعدن نصيب وافر فيما تدعو إليه.

2 من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة، -الأمانة العامة-، ص 189.

3 ينظر: ديوان البيحاني، القصيدة رقم (42).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

نوافذ النور على العالم في ماضيها المجيد وما هذا الفرع إلا جزء لا يتجزأ من الأصل، فدعا لها بالأمن والإيمان وسعة الرزق ووفرة الخيرات، قائلاً:¹

إلهي مدينتنا عدن تعز علينا ولم نجد
لها مثلاً في البلاد ولو تكلفت بالبحث قلت قد
فما للغريب ولا بن السبيل وما لقريب ومبتعد
سوى عدن ثم لا برحت بخير إلى منتهى الأبد

ويستمر البيحاني في أداء دوره المتميز يدعو إلى الإصلاح وإلى قيادة رشيدة توحد الناس تحت لواء الحق والعدل وتحافظ على المعالم الإسلامية من دين ولغة وثقافة، قائلاً:²

وفي عدن لا بد من متزعم شجاع إذا ما قال للخصم هزام
يسير بنا صفاً إلى ما نريده وقد مزقت شمل العروبة أعجام
أتونا وكانوا معدمين وفجأة رأيناهم استغنوا وبالشعب

وظل البيحاني مهتماً بما يجري على الساحة الداخلية واعظاً حيناً ومتألماً حيناً، فنجد نغمة الحزن والأسى في قصيدته التي رثى بها الأطفال الذين نسفت بهم السيارة في كلية بلقيس في 1387هـ، ورغم حجم الكارثة وعظم المأساة إلا أنه لم ينس أن يعرج على ماضي عدن ويستعرض حاضرها قائلاً:³

ماذا يريد بنا الرحمن في عدن من بعد حربة فيها وتأمين
وأنها لبلاد كان يقصدها لخيرها كل جبار ومسكين

فعدن تعني للبيحاني: الوطن والتاريخ ونبع الحياة المتدفق إلى كيانه، ومركز الإشعاع الحضاري إلى مدن وأرياف اليمن.

خلاصة القول: إن الوطنية كانت من أبرز الصفات وأجمل الطوابع التي وسمت شعر البيحاني واتصف بها مثله مثل غيره من أبناء عصره من شعراء اليمن في

1 ينظر: ديوان البيحاني، القصيدة رقم (29).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (71).

3 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (88).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويان
الأربعينيات وما بعدها والتي تعتبر بحق البداية الحقيقية لعصر النهضة
الشعرية والأدبية في اليمن¹.

البعد القومي:

شغلت القضايا الوطنية والقومية مساحة واسعة في الشعر العربي الحديث
ولم يكن الشعر في اليمن بمعزل عن القضايا المعاصرة. والبيهاني كان واحداً من
هؤلاء الشعراء فهو الوطني، النابعة وطنيته من إيمانه الصادق، والمسلم هو
الوطني الصادق كما ذكر الإمام أبو الأعلى المودودي -رحمه الله تعالى- لأن
وطنية المسلم المحلية هي جزء من وطنيته الوسطى على مستوى العروبة، وللتين
بدورهما تستمدان جذورهما وأصولهما من الوطنية الكبرى الواسعة بأفاقها
العالمية على المستوى الإسلامي الشامل حتى للعالمين جميعاً² ثم إن البيهاني ما
من قضية من قضايا العرب والمسلمين حدثت في عصره إلا وتعرض لها، ولهذا
تجد في شعره أسماء كثيرة لبلدان عربية وإسلامية مثل: فلسطين، لبنان، سوريا
ليبيا، العراق، السودان، مصر، الحجاز، اليمن، كشمير، المغرب، تونس، الجزائر،
... وغيرها.

ثم يتعرض البيهاني لما يجري في العراق ومصر والسودان وسوريا ولبنان
والجزيرة العربية وليبيا، قائلًا:³

أما العراق فإنها كانت لنا أملاً إذا غضب العدو وزمجرا
كنا نعد الجيش فيها كافياً لحماية الأوطان أن تُستعمرا

وتتصاعد رنات الأسى والحزن لما يجري في لبنان بين المسلمين والمسيحيين وهم
من دم واحد هو الدم العربي، فيناديهم بعروبيتهم، وهنا تتجلى قومية البيهاني في
نظرته إلى كل اللبنانيين على اختلاف معتقداتهم الدينية وهو موقف يسجل
لبيهاني في صفحات النضال العربي، فيقول:⁴

ويسوؤني يا من يحب صفاء لب نان الشقيقة أن يعود مكذرا
ما بين أتباع المسيح وأحمد وجميعهم عرب فما هذا الهرا

1 ينظر: الشعر المعاصر في اليمن، أحمد قاسم المخلافي ص150.
2 ينظر: من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة- الأمانة العامة، ص192.
3 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (33).
4 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (33).

بيروت مثل دمشق جغرافية وعروبة لولا التفريق والمرأ

وتنزاح الذاكرة الشعورية نحو الجزيرة العربية التي منها وفد، وفيها الثالث (فقر، جهل، مرض) يقتل أهلها، فينادي قادة العرب من أهل العلم والفضل إلى إسداء النصح للإمام للقيام بالإصلاحات في بلده التي تتأخر علمياً واجتماعياً مذكراً بوحدة العرب، فلا فرق بين مدينة في شمال الجزيرة وأخرى في جنوبها، قائلاً:

ودعوا الجزيرة وهي في غفلاتها ممنوعة في الأمر أن تتفكرا
والجهل يقتل أهلها ويذلهم حتى يعيشوا قانعين وصبرا

هذه حدود قومية البيهاني التي جعل من لفظها ومشتقاته كلمة مفتاحية في معظم قصائد ديوانه، لكن في غير حيف ولا تعصب لجنس أولون أو وطن، لإيمانه العميق بتاريخ العرب الإسلامي ووحدة الأمة الإسلامية الروحية والعضوية "تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"¹.

ولهذه الاعتبارات كان للبعد الإنساني والاجتماعي حضور متميز في شعر البيهاني نلاحظ ذلك في قصيدته التي قالها في سنة 1374هـ، واستعرض في بعض أبياتها لحوادث المستعمرين وتحيلهم على الناس في مستعمراتهم، وفيها ما جرى لفرنسا وما جرى منها ولها في الهند الصينية والمغرب الأقصى وما كان يكذب به الإنجليز في مصر والجنوب العربي، قائلاً:²

متى تنتهي يا أيها العالم الحرُّ عن الجور في استعبادنا ولك الشكر
بلغنا وإن كنت الوصي فأعطنا مواردنا من كل ما خلف الدهر
وإن أنت لم تفعل فلسنا بتاركي حقوقاً لنا والشريدفعه الشر
ولا يُثم بعد اليوم إلا تجنياً علينا وشبَّ اليوم عن طوقه عمرو
سئمنا ظلام الغرب والغرب ظالم وفي شدة الظلماء ينبثق الفجر

1 صحیح البخاري، ضبطه: مصطفى البغا، دار ابن كثير، ط، دمشق، 1987م 2238/5 رقم(5665).

2 ينظر: ديوان البيهاني القصيدة رقم (30).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان

هكذا ظل البيهاني يكافح عن قضايا أمته وقضايا الشعوب المستعمرة، داعياً إلى وحدة العرب والمسلمين ولممة الصفوف في مواجهة العدوان.

لقد سار البيهاني على درب الوحدة حاملاً مشاعر تجلّلها الأحلام وتكسوها الآمال في غدٍ أفضل مهما اعترضت العقبات سبيلها ومهما كانت آلام الحاضر، فأخذ يذكر بالماضي المجيد لإزالة العقبات، فنظم أحاسيسه وفاض شعوره شعراً يسافر بين أقطار الوطن العربي والشرق الإسلامي برمته لا تحده حدود ولا تغله قيود ولا تشدده أو تشده عصبية جاهلية أو عبثية طائفية من أي نوع، فأينما حل الإسلام فهو وطنه، وأينما كان العرب فهم أهله فالجميع إخوانه وأشقائه، ولذا تجب عليه نصرتهم وهذا ما يمليه عليه معتقده انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فتناول البيهاني هذه المعاني، قائلاً¹:

ماذا تريد شعوب الشرق تفعله والغرب مجتمع والله يخذله

يا أمة العرب من شام إلى يمن إلى مراكش من للعبء يحمله

يا مصر يا نجد يا أهل الحجاز ويا أهل الخليج عدو المرء يمهله

والبيهاني شأنه شأن معاصريه ظل يعزف على قيثارة الوحدة متنقلاً بين ألحان الماضي الأصيله وألحان الحاضر الآسية في مقابلة المراد منها الخروج بلحن موحد للمستقبل المنشود، قائلاً²:

حي العروبة في جلال بيانها وعظيم ما عرفت به من شأنها

في علمها في فضلها في دينها في طيب لهجتها ونطق لسانها

هكذا ظل البيهاني ينادي بوحدة العرب والمسلمين في قصائده التي تتجلى من خلالها شخصية البيهاني الغيور على دينه وقومه والفقير الدقيق في حكمته وأحكامه والشاعر الواضح في أسلوبه.

إن القضية الفلسطينية هي أبرز قضايا الأمة العربية والإسلامية في العصر الحديث، منذ وعد (بلفور) عام 1917م مروراً بالانتداب والنكبة عام 1948م أخذت القضية بعداً سياسياً وحضارياً وقومياً، فكانت قضية المسلمين الأولى؛ ومن ثم كانت مثار اهتمام كافة الشعراء العرب والمسلمين بوصفها قضية قومية وقضية إسلامية وقضية عربية إسلامية .

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (61).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (84).

ومن هذا المنطلق جاء اهتمام كثير من الشعراء اليمنيين المعاصرين بقضية فلسطين منهم: الزبييري والحضراني والبردوني وغيرهم. وكان البيحاني واحداً من هؤلاء الذين استنهضوا الأمة وقادتها لتؤدي دورها التاريخي والعربي والإسلامي لاستعادة الحق المغتصب المسلوب، لكي يشعر الأعداء أننا أمة تستحق الحياة وتستوجب الاحترام، وحينئذ لن يضيع حق وراءه أمة أبيه ترى العزة والكرامة جزءاً من عقيدتها تتسابق إلى الموت والشهادة أعظم من تسابق أعدائها إلى اقتسام الغنائم.

فكانت للبيحاني وقفات عند هذه القضية في كثير من قصائد الديوان، ففي قصيدته التي قالها في (مكة) أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي بها للعام 1384هـ نادى في مستهلها المسلمين من كل بقاع المعمورة، وتصدرت قضية فلسطين كل القضايا فذكر بأهميتها التاريخية وأنها القضية التي تستحق بذل الغالي والنفيس لتخليصها من الأسر اليهودي الغاصب، وأن الوسيلة الوحيدة لاستردادها هي القوة التي من أهم وسائلها الوحدة إلى جانب لغة المدفع.

لقد كانت فلسطين حاضرة في ذاكرة البيحاني في كل مكان وفي أي مقام سواء أكان المقام مدحاً أم رثاءً أم غير ذلك، فحينما ذهب ليهنئ الإمام أحمد بمناسبة جلوسه على العرش لم ينس أن يذكر بمأساة فلسطين التي ناح لألامها، فلسطين التاريخ، فلسطين الإسلام، التي يجب أن تبذل لها المهج والأموال، قائلاً:¹

فلسطين يا ثاني القبلتين ملئت بـاذورة الزبد

أتاك اليهود بقواتهم تؤيدهم قوة السند

وتتصاعد القضية الفلسطينية حدة وسوءاً، حين انتقلت فلسطين من أيدي آثمة إلى أيدي مجرمة حقودة وحظيرة، فما الإنجليز وروسيا وأميركا إلا كما قال البيحاني في قصيدته التي أنشدها بين يدي الملك عبد العزيز:²

يا لليهود تعز في أوطاننا ونذل نحن ونحن سادات الملا

فالإنجليز وروسيا وأميركا تضع الرفيع ويرفعون الأسفلا

ظلموا فلسطين العريزة وانتهوا والظلم للتاريخ صار مسجلا

1 ينظر: ديوان البيحاني ، القصيدة رقم (29).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (63).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شوبان

سمع البيهاني باشتداد الوطأة على الفلسطينيين والمسجد الأقصى فيحزن
لذلك ويعبر عن هذا الحزن بقصيدة استهلها بقوله:

إذا شئت من دمعي وإن شئت من فمحربرة عيني ومحربرة فمي¹

إلى أن قال:

فدعني أبكي والدموع غزيرة وبالدمع قد يُطفئ لهيب جهنم
وفي النفس آلام أشد حرارة وكم يا ثرى في الناس من متألم
ولكن مثلي حين يذكر ما جرى لنا في فلسطين العزيزة يرتمي

لقد استأثرت قضية فلسطين بما لم تستأثر به أي قضية عربية أخرى، كما كانت مجالاً خصياً لشعراء اليمن على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم الفكرية، فواكب الشعر اليمني مسار هذه القضية منذ بدايتها بوعد بلصور المشؤوم إلى أن قامت حركتها الفدائية، وما زالت قضية فلسطين تحتل المركز الأول لدى كافة الشعراء العرب، والبيهاني شأنه شأن معاصريه تصدرت قضية فلسطين شعره، فوقف في معظم المناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية يسجل أحداثها بكل ما تكتنزه من مأسٍ وما ينبغي فعله إذا ما أراد المسلمون استردادها، فظلت حاضرة في عقله وقلبه ووجدانه وفاضت بها أحاسيسه انفعالات ونفثات حرى لا يملك المرء حيالها إلا أن يجهش بالبكاء لمأساتها، مندداً بمواقف القيادات العربية والإسلامية، ومبيناً أكاذيب اليهود ودجلهم وخستهم، مستنداً إلى الأمل في العودة القريبة إلى الرشد واسترجاع ما سلب، إن تلك المحاور المذكورة سلفاً في هذا الاتجاه هي رسالة الأدب القومي عند البيهاني، وقد كان أمله في مستقبل أفضل ينعم فيه وطنه العربي والإسلامي بالرخاء والأمن والحرية في ظل قيم الإسلام ومثله وشرائعه في تعايش أممي سلمي مع الغير على اختلاف معتقداتهم الفكرية والدينية والسياسية القائمة على ضوابط وأصول تنظم هذا التعايش بما لا يتعارض مع الإسلام الحنيف.

البعد الاجتماعي:

لقد اهتم البيهاني اهتماماً بالغاً بالإصلاح الشامل في جميع مناحي الحياة ومنها الجانب الاجتماعي الذي يعد صلب المجتمع وعموده الفقري الذي

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (77).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شوبان

تتحامل عليه أجزاء الجسد الأخرى، وليس أدل من اتباعه هذا المنهج ما تركه من تراث ثقافي وفكري في مؤلفاته: إصلاح المجتمع، وتربية البنين، وأستاذ المرأة، ورسالة نحو المسجد، وعبادة ودين، وصفية المظلومة (قصة)، ولا تعبثوا بعقول الناس، ودين الله يحل المشكلات، إلى غير ذلك من الكتب التي تزيد على ثلاثة وستين مؤلفاً، إضافة إلى إسهاماته الثقافية والدعوية مما قاله من على منابر الخطابة أو في البرامج الإذاعية والفتاوى الدينية من إذاعات صنعاء وعدن وصوت الإسلام بمكة المكرمة.

لقد واكب البيهاني ازدهار التيار الاجتماعي في بداية النهضة التي شهدها المجتمع اليمني خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، فمشاركه وقضاياه كانت كثيرة ومتعددة، فألى جانب المشكلات السياسية التي تمثلت في محاربة الاستعمار والاستبداد، كانت هناك مشكلات اجتماعية خطيرة تعاني منها البلاد، فكان شعر البيهاني الاجتماعي نتيجة طبيعية لما تعكسه في النفوس شتى المؤثرات من اقتصادية واجتماعية تمثلت في الأبعاد الاجتماعية الآتية:

- 1- اهتمام البيهاني بالدعوة إلى محاربة الجهل وغرس حب العلم والاهتمام به في حياة الناس؛ لأنه السبيل المؤدي إلى الحياة الجديدة حياة العلم والحضارة.
 - 2- العطف على الطبقة البائسة في المجتمع، التي تشكل السواد الأعظم من المجتمع.
 - 3- الدعوة إلى إصلاح وضع المرأة وإعطائها حقوقها غير منقوصة وفقاً وشريعة الإسلام.
 - 4- الاهتمام بشريحة الشباب الذي يعده أهم ركائز المجتمع وواحداً من أهم أسباب تطوره.
 - 5- الدعوة إلى صحافة حرة بعيدة عن المصالح الذاتية والأغراض الشخصية تجعل الوطن والمواطن من أهم أولوياتها فتفضح الفساد وتكشف أوراقه وتعالج الاختلافات حيثما وجدت.
- كما دعا إلى محاربة كل ما يؤدي إلى انحراف المجتمع وفساده وإصلاح الخلل المتمثل في:

- الابتعاد عن تعاليم الإسلام ومنهجه القويم.
- عدم الالتزام بالتقاليد الإسلامية والقومية والتأسي بالسلف الصالح.
- التشبه بالكفار.

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان

ولذلك فإن البيهاني قد عمل مع غيره من المصلحين على إنشاء الجمعيات والنوادي الأدبية التي كان الهدف منها: رفع مستوى الأخلاق بين الناس، ومحاربة الدجل والخرافات والعادات الدخيلة على الإسلام، ونشر العلم وتنشيط المعارف، وتوسيع قاعدة المثقفين ورفع المستوى المعيشي للناس بالبحث عن الوظائف للعاطلين عن العمل¹.

لقد كانت مشاكل المجتمع اليمني الاجتماعية متداخلة ومتشابكة مع المشكلات السياسية إلى حد كبير، فكان الشعب جاهلاً وفقيراً ومريضاً وشعب هذه أحواله يعد متخلفاً، لا يقدر على إدارة عجلة الإصلاح، والشعب الضعيف الواهن يظل عاجزاً عن المقاومة والنضال لأخذ حقوقه.

ولهذا عني البيهاني كغيره من شعراء اليمن المعاصرين بالناحية الاجتماعية عناية كبيرة وركز على محاربة تلك الأمراض ومقاومتها للخلاص منها والدفع بعجلة الإصلاح إلى الأمام.

إن طلب العلم عند البيهاني لا يقتصر على معرفة الشعائر من صلاة وصيام وزكاة إلى غير ذلك، ولكنه خلق وأخلاق، ومعرفة وسلوك؛ أي معرفة المجتمع وخلال أفراد جميلها وقبيحها، حلالها وحرامها، فيقول: "وليس غرضنا من التعليم أن يتخرج من مدارسنا ومساجدنا معلم الصبيان والمؤذن والإمام ولكنه ذلك وأن يكون في علمائنا الصانع والطبيب، والتاجر، والجندي، والقاضي والخطيب والشاعر المجيد، والنائر الأديب، والصالح لدينه ودينه..".

لقد أرفق البيهاني خطابه النثري ودعوته الصريحة إلى العلم النظري إلى جانب العلم الشرعي، خطابه الشعري ليكون رديفاً له ورافداً من روافد إصلاح الوضع، فكانت دعوته صريحة واضحة إلى كسر قيود الجهل التي كبلت المجتمع وأعاقت حركته المجتمعية نحو التقدم والتطور، فيقول: ³

بالعلم والتعليم كسر قيودنا وبه نصارح هذه الحدانا

إن المعاهد بالخلاص كفيلة لتخرج الفتيات والفتيانا

1 ينظر: ندوة الشيخ البيهاني مفكراً وداعية - مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ص 49.

2 ينظر: الفتوحات الربانية، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، ص 192.

3 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (82).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أوبكر محسن شويان

وفي قصيدة أخرى عدّ الجهل نوعاً من أنواع الشرك لضرره البالغ بالإنسان
وعدّ العلم سبيل النجاة من ذلك، فيقول:¹

وأصبح العلم مثل النور مشتركاً والجهل أصبح إضراراً وإشراكاً
والجهل شرُّ عدو لا تقاتله إلا بسيفك مسلولاً وفتاكاً

إن طريق العلم هي طريق الخلاص من آدواء المجتمع، هذه القناعة جعلت
البيهاني يدعو الشباب إلى السير في طريق العلم طريق التقدم والرقى والبناء
وتحقيق الطموحات المتمثلة في الحياة الحرة الكريمة.

واستمر البيهاني يتدفق شعره، حاملاً الهم الاجتماعي المتمثل في الفقر الذي
امتألت المستشفيات بضحاياه فلا تسمع إلا أنين المرضى، وأصوات الثكالي، فهذه
المدارس بالأيتام تعج، والبيوت بالعجائز والشيوخ والأرامل ترتج، ولكي يكون
الوضع أكثر وضوحاً، لنستمع إلى البيهاني الشاعر وهو يرسم بألحانه صور
الفقر والجهل اللذين يكابدهما المواطن اليمني، قائلاً:²

والوضع في كل شيء بين إخوانكم من حضرموت إلى جيزان تنكره
جهل فظيع ونقص في معارفنا والدين كاد قليل العقل يعبره
والفقر حالفنا أن لا يخالفنا وليته ينقض الأحلاف نعدره

إن البيهاني رفع لواء الإصلاح محارباً الجهل داعياً إلى العلم مقاوماً أسباب
النشطاء يرنو إلى مجتمع سوي يسوده الرخاء والتكافل الاجتماعي والتعاطف بين
أفراده حكماً ومحكومين.

لقد أدرك البيهاني أن ارتقاء الأمم وهبوطها لا يكون إلا بشبابها ولذا وجه
اهتمامه إلى هذه الشريحة، لذا وجه البيهاني خطابه النثري والشعري إلى
الشباب أصحاب التغيير والأقدر عليه، قائلاً:³

”بماضي عزيبتكم تحقق الآمال، وبهمتكم العلية تدرك الأطماع، وتنال،
وعلى كواهلكم المتينة تحمل الأثقال، وبسواعدكم القوية تكون الصناعات
والأعمال، وأنتم التجار والزراع والعلماء والأبطال، وأنتم الشعراء والخطباء
والصحافيون والكتاب .

1 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (59).

2 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (32).

3 ينظر: الفتوحات الربانية، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، ص 233

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان

فالشباب مستقبل الأمة الواعد، وكي يظل رمزاً للتغيير عليه أن يبقى بعيداً عن مسخ مدنية اليوم ببهرجها الزائف وشعاراتها الجوفاء حتى يحافظ على كيانه من السقوط وتوجهاته من الانحراف، كما وجه إليهم نصحه بالابتعاد عن التزمت والعمل أكثر من القول وليكن عملهم مبنياً على أساس من العلم الذي تبنى به الأوطان وتحمى الأعراض، فيقول:¹

وسوف نبعث شباناً عباقرة إلى المدارس طابورا فطابورا
من ها هنا بقلوب في بصائرنا نوراً من الله لا عمشاً ولا عورا
العلم رائدهم والمجد غايتهم والحظ يدرك من هذين موفورا

إن البيهاني أدرك أهمية الشباب ودوره الريادي في الحياة فتوجه إليه بشعره ومشاعره وإحساسه ووجدانه، من أجل إصلاح أوضاعه فهو المحور الرئيس الذي تدور حوله كل هموم المجتمع وقضاياها، فصالح الشباب يعني نهوض الأمة لتجد نفسها في رياض الخير فينعم المجتمع برحيقها العذب ويشم روائحها الفواحة على أرض اليمن السعيد.

لقد نظر البيهاني إلى المرأة من زاوية الإسلام الذي تؤدي فيه المرأة أدواراً عديدة، فهي الأم والزوجة والأخت والابنة، وإلى جانب ذلك لها حقوق يجب أن تؤدي غير منقوصة وعليها واجبات يجب أن تقوم بها كاملة، دون أن يكون للنظرات التي لا ترى فيها إلا نقصان العقل والدين أي وزن، فهذه تصورات فسرت على غير ما أطلقت له فغدت تصورات ساذجة ومغلقة على نفسها.

وإذا كانت المرأة لم تحظ باهتمام كبير من شعراء اليمن وخصوصاً في عهد ما قبل الثورة، فإن قضيتها عند البيهاني كانت في قمة الهرم الإصلاحي، سواء في نتاجه الشعري أم في خطبه ومحاضراته، فمن اهتمامه العظيم بها أنه لم يكتف بما ذكره عنها في خطبه ومحاضراته، وكتبه ودروسه من تفاصيل، بل أفرد لها كتاباً خاصاً شاملاً أسماه "أستاذ المرأة" وقد كان بالفعل كذلك، ففيه تفصيل لما للمرأة وما عليها، وتحدث عن همومها ومعاناتها وقضاياها ومشاكلها وما ترزح تحته من ضغوط العادات والتقاليد المخالفة لتعاليم الإسلام السمحة.

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (35).

الشيخ العلامة البيحاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

لقد كانت المرأة هدفاً من أهداف مشروع البيحاني الإصلاحية وقضية من قضاياها الوطنية التي أولاهها عنايته واهتمامه، فاسمع إليه وهو يخاطبها:¹

”ولن ألو جهداً في السير معك صغيرة وكبيرة، وذات زوج وأيماً وداخل البيت وخارجه، وعلى المنسج والمغزل ومكينة الخياطة والمكتب وفي المطبخ والمستشفى، وفي جميع ما يصح أو ينبغي لك أن تباشريه من أعمال النسوة في المدرسة والبيت والمعبد والمعمل، ومعلمة ومتعلمة، ومربية وطبيبة، ومتعبدة وبائعة، ومشتريه ومعيرة ومؤجرة، وموكلة ومودعة، ووارثة وموروثة، فيقول معبراً عن ذلك:²

وللنساء حقوق لا نجاوزها ولا نقصر فيها حسب ما زعموا
إذا عرفنا لهن الواجبات ولم يتركن شيئاً من الحق الذي لهن
فالبيت في مرح والأهل في فرح وعيشهم رغد والشمل ملتئم

لقد وقف البيحاني موقفاً وسطاً فأخذ يرفع من شأن الحشمة والشرف والحجاب والأخلاق الكريمة، ويحارب الجهل والتخلف، ووقف ضد من يسلب المرأة حقها في الحياة، وحقها في العيش الكريم، وحقها في الميراث وحقها في الاحترام.³

كما أن البيحاني لا يمانع من أن تمارس المرأة العمل السياسي: ”وليس في الدين ما يمنع المرأة من الاشتغال بالسياسة والمشاركة في الأمور الهامة التي هي من اختصاص الدولة ورؤساء الأمة سواء الداخلية منها والخارجية في الحرب والاقتصاد والمفاوضات، وتبادل المصالح ما دام ذلك في حدود الشريعة ومع العصمة والاحتفاظ بأنوثتها الطاهرة وربما كان رأيها أصوب ونظرها أبعد وتجاربها أكثر“⁴.

شهدت مستعمرة عدن في الخمسينيات تنامياً كبيراً في أعداد الصحف والمجلات الأهلية والنقابية والحزبية، مثلت هذه الإصدارات مجالاً واسعاً للتعبير عن الآراء، التي تتفق أحياناً وتختلف أخرى، ونشبت معارك قلمية على صفحاتها، وبرزت كثير من الآراء التي تدعم هذا الاتجاه، وتختلف مع ذلك وكان البيحاني نفسه طرفاً في بعض هذه المعارك، منها على سبيل المثال

1 من أعلام الإصلاح والتجديد في اليمن، دائرة الإعلام والثقافة،-الأمانة العامة-، ص221.

2 ينظر: ديوان البيحاني، القصيدة رقم(73).

3 ينظر: نصيحة إلى جميع أهالي يافع، الشيخ محمد بن سالم البيحاني، دار الجماهير للطباعة والنشر، طر، عدن، 1386هـ، ص22

4 ندوة الشيخ محمد بن سالم البيحاني..مفكراً وداعية، مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ص167.

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

المعركة التي كانت تدور رحاها بينه وبين الشيخ علي باحميش على صفحات فتاة الجزيرة في منتصف الخمسينيات، فضلاً عن المقالات التي تم تبادل الهجوم من خلالها فيما بينه وبين عبدالله باذيب، لذلك فإن البيهاني على إيمانه بحرية الرأي وأهمية الصحافة كآلية للتعبير عنه لم يضق ذرعاً، إلا أنه عاب على الصحافة انحيازها إلى طرف دون طرف وحيادها عن الموضوعية، قائلاً:¹

حطم الله تلكم الأقلاماً والأكف التي بها تترامى
جردها على المبادي سلاحاً يدع الدين والحياء حطاماً

وهذا لا يعني حيفاً أو تجنياً على الصحافة فهو الذي عرف عنه تقديره لمهنة الصحافي بل عدّه سفيراً من الشعب إلى حاكميه ومرؤوسيه، فيقول:² "أما الصحافيون وأصحاب الجرائد فهم السفراء بين الحكومات والشعوب، وبهم تظهر الحقيقة وتتقدم الحضارة، وتعم الثقافة وتسمع الشكاية... وهم أعداء الظالمين وأنصار المظلومين وبقدراتهم يجعلون الباطل حقاً والحق باطلاً، فإذا نصحو الله وللدين وللأمة وللأوطان فمنهم تسمع النصيحة وبأقلامهم تهدم العروش وتبنى... ؛ وجسد هذه المعاني شعراً؛ فقال:³

وأرى الصحافيين في أقلامهم وحي السماء وفتنة الشيطان
وهم الجنة على الفضيلة دائماً وهم الحماة لحرمة الأديان

هكذا نظر البيهاني إلى الصحافة وهكذا حاول توجيهها وإصلاح مواطن ضعفها وتقوية جوانبها المشرقة لتخدم وطناً وأمة كمنبر إعلامي له دوره الخطير والكبير في المجتمع.

تحدث البيهاني شعراً ونثراً عن ظاهرة القات تلك الآفة الخطيرة، والمرض المزمن الذي أصاب الجسد اليمني فأوهن قواه وشل حركته عن السير في طريق التقدم والنما، فكم ضييع من المال، فأفقر أسراً كثيرة، وقتل الأوقات وأضر بالمجتمع والفرد اقتصادياً واجتماعياً. وقد عدّه البيهاني من الابتلاء ومن

1 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم(76).

2 إصلاح المجتمع، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، دار القلم، لبنان، طر، بيروت، 1986م، ص276

3 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم(87).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

المصائب والأمراض الاجتماعية الفتاكة، لما فيه من الأخطار والعلل فأوضح في كتابه: (إصلاح المجتمع)، بعضاً منها:¹

”ومعلوم من أمر القات أنه يؤثر على الصحة البدنية؛ فيحطم الأضراس، ويهيج الباسور، ويفسد المعدة، ويضعف شهية الأكل، ويدر السلاس، وهو الوذي، وربما أهلك الصلب، وأضعف المنى، وأظهر الهزال، وسبب القبض المزمن، ومرض الكلى، وأبناء ماضغي القات غالباً يخرجون ضعاف البنية، صغار الأجسام، قصار القامة، مصابين بعدة أمراض خبيثة“ وكان البيهاني - رحمه الله - يدرك أن نهوض المجتمع يعتمد على أفراد، فبالفرد يُبنى المجتمع وتعمّر الحياة، فيقول معبراً عن تلك الآثار:²

إن رمت تعرف آفة الأقات	فانظر إلى إدمان مضغ القات
القات قتل للمواهب والقوى	ومؤلّد للهم والحسرات
ما القات إلا فكرة مسمومة	ترمي النفوس بأبشع النكبات
ينساب في الأحشاء داءً فاتكا	ويعرّض الأعصاب للصدّات

ويوجه النصح إلى متناولي القات ومروجيه بأنهم سيفيقون على هول الكوارث والمضار، فيتحدث عن تجربته الخاصة مع هذه الآفة، قائلاً:³

عزمت على ترك التناول للقات	صيانة عرضي أن يضيع وأوقاتي
وقد كنت عن هذا المضرّ مدافعاً	زماناً طويلاً رافعاً فيه أصواتي
فلما تبينت المضرة وانجلت	حقيقتَه بادرته بالمنأوة
طبيعته اليبس الملم ببرد	أخا الموت كم أفنيت منا الكرامات
وقيمة شاربي القات في أهل سوقه	كقيمة ما يدفعه من ثمن القات

هكذا نظر البيهاني إلى القات وهكذا رد على كل من يروجون له تحت مبررات شتى كقولهم: الاستعانة به على قيام الليل، وإنه قوت الصالحين، أو يقولون: جاء به الخضر من جبل (ق) للملك ذي القرنين، ويروون فيه من

1 ينظر: إصلاح المجتمع، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، ص406.

2 ينظر: نفسه، ص406، 407.

3 ينظر: إصلاح المجتمع، الشيخ محمد بن سالم البيهاني، ص407.

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويان

الحكايات والأقاصيص شيئاً كثيراً¹، فأنتلق البيهاني من قناعاته أن القات ليس من الطيبات، والله سبحانه يقول: (وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)²، وهو باب تبذير للمال والصحة، وربنا سبحانه قد نهانا عن ذلك في محكم التنزيل فقال: (وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27))³

البعد الديني:

لقد مضى البيهاني شاعراً إصلاحياً، يؤمن بالإسلام ديناً ودولة، شريعة وقانوناً، أساساً للتكوين الفكري والروحي، إسلام يتناول مظاهر الحياة جميعها بجدية وافتتاح على الجديد بما لا يتعارض وقيم الإسلام، ولا صلة له بالعقلية الكهنوتية التي عابها البيهاني كثيراً في شعره، قائلًا:⁴

ورأيت في الفقهاء من لا يرعوي عن قوله بالرأي في القرآن
فيفسر الآيات وفق مراده ويبيع ربح الدين بالخسران
ولعله يروي الحديث مغيراً وإذا تفلستف جاء بالهذيان
ويزين البدع التي فسدت بها الأعمال واخترعت بالاستحسان
والمحدثات وأهلها في النار والـ إكمال في الإسلام كالنقصان

فالدين عند البيهاني لا يتمثل في المظاهر الخداعة والطقوس التي ما أنزل الله بها من سلطان:⁵

والدين ليس بتسبيح وتمتمة ولا بما يفعل الإنسان مغرورا
ولا بضوء ومصباح نعلقه ولا الزخارف تحميراً وتصفيراً
وإنما الدين أن تبنى منابره لكي تخيف قصور الظلم والدورا

فالدين الذي يعبر عنه البيهاني تتسم تشريعاته بالقدرة على استيعاب الحياة وحل مشاكلها المتجددة والقدرة على تنظيم الحياة في كل زمان ومكان:⁶

1 ينظر: نفسه، ص 407.

2 الأعراف، الآية: 157.

3 الإسراء، الآية: 26، 27.

4 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (87).

5 ينظر: نفسه، القصيدة رقم (35).

6 ينظر: ديوان البيهاني، القصيدة رقم (45).

الشيخ العلامة البيهاني شاعراً وأديباً أ. محمد أبو بكر محسن شويبان

شريعة الله ما جاء النبيُّ بها لا ما يقولونه بالظن والحدس
وما الضلالات إلا في مخالفة منهم لشرعتنا والعكس بالعكس
هيئات لا يستوي زور وفسوسة بالحق مصدره من حضرة القدس

وبهذا المنهج سار البيهاني يعيب على المدعين للعلم والإساءة إلى الإسلام وأهله بتصرفاتهم التي تتناقض مع روح الإسلام وتعاليمه، الإسلام الذي يتكيف مع كل عصر ومصر، الإسلام المتجدد بتجدد الحياة ومطالبها وبهذا حاول البيهاني أن يرسم للأمة خطأ ويصنع لها منهجاً حتى تتبين مع من تسير؟ وخلف من تصطف؟ بعيداً عن الذات، متجرداً للواحد الأحد.

هكذا كان لشعر البيهاني إسهاماته في الإصلاح الديني ومعالجة الأوضاع المتردية في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، فكان أحد الأعلام البارزين الذين عبروا عن حال المجتمع ومعاناته بدافع الصدق والإخلاص والرغبة في تنقية الإسلام من صفات الجمود والتخلف والتعصب التي لحقت به جراء تصرفات بعض المنتسبين إليه، فكان الشعر من أهم أسلحة دعاة الإصلاح من علماء وشعراء وقضاة في محاربة عوامل الفرقة والاختلاف، والقضاء على بؤر الفساد المتمثلة في مستنقعات الفقر والجهل والمرض، فكان شاعرنا محمد بن سالم البيهاني عاملاً فاعلاً في خضم الأحداث المتلاطمة، فشارك العالم الإسلامي همومه كما شاركه نضاله ضد الاستعمار والاستبداد، فعبر عن قضية فلسطين كقضية من أهم قضايا المسلمين، وتغنى للوحدة العربية والإسلامية كهاجس وشارك العالم المظلوم فعبر عن قضايا الشعوب كقضايا إنسانية أملاها عليه ضميره الإنساني.

هكذا سار البيهاني على درب الحياة الدعوية مجاهداً رافعاً صوته خطيباً وشاعراً وأديباً حتى توفاه الله بعد منتصف ليلة الجمعة 28 من ذي الحجة 1391هـ الموافق 13 فبراير 1972م، بعد أن عاش 64 عاماً وألف نحو 64 مؤلفاً في العقيدة والفقه والأدب شعراً ونثراً - رحمه الله - وأسبل عليه سحائب الرحمة والمغفرة.